المحاضرة السابعة

المطلب الخامس عشر: في تربية الولد باعتبار الصناعة

من المعلوم أن الناس منقسمون باعتبار مركزهم وثروتهم إلى طبقات يختلف كل منها عن الأخرى منزلة واستعدادا، وعليه ينبغي أن تكون التربية العامية على أنواع يلائم كل منها إحدى تلك الطبقات فمن كان من أهل الطبقة العالية يجب أن يلقن العلوم الكمالية التي ترشحه لما قد يتولاه يوما من الأعمال العظيمة كالقضاء والسفارة والرئاسة وغير ذلك من الأمور المهمة.

ومن كان من الطبقة المتوسطة وبدا فيه استعداد وميل للفنون الجميلة أو الطب أو المحاماة أو التجارة من الواجب أن يعنى بتلقينه العلوم التي تساعده على إتقان تلك الحرف بالممارسة. أما من كان من طبقة العوام فالأفضل أن يربى تربية عامية تؤهله الآن يكون عاملا بيده لكسب معاشه، وذلك أن يتعلم أصول الحرفة التي يميل إليها علما عقليا متقنا يساعده بعد ذلك على ممارستها عملا، ويكون ثمة في وسعه أن يوفيها حقها من الأحكام والإتقان ولما كانت الأعمال على أنواعها لا تحصل بالعلم وحده؛ فمن الضروري أن يصحب التعليم العقلي شيء من التعليم العملي، وهو ما نرى مدارسنا ساعية إليه في هذه الأيام.

ومن واجبات الوالدين أولا والمعلمين ثانيا أن يراعوا ميل الولد

واستعداده للصناعة التي يحملونه على تعلمها، وذلك أن يراقبوه منذ الصغر ليروا أي عمل يميل إليه بالطبع وأي شيء هو أكثر استيقافا لفكره واستلفاتاً لنظره وأي علم يكون أبرع فيه وأكثر ارتياحا لتحصيله فيتخذوا من ذلك دليلا على ميله الخاص إليه واستعداده الغريزي له ومتى توفقوا إلى ذلك وجب أن يبذروا بذوره في تربة عقله ويحولوا أفكاره إلى وجوب إتقانه ودرس العلوم التي تساعده على زيادة الانتفاع به والإثراء بواسطته فإنه من الخطأ أن يحمل الولد على تعاطي صناعة أو تعلم فن لا يلائم ميله وحالته وليس في سجيته استعداد له إذ أنه لا يمكن أن يبرع به أو ينجح بواسطته كما لو تبينا في عقل الولد وهنا، أو عدم ميل لعلم الرياضيات فلا يعقل أن يكون يوما مهندسا بارعا أو رياضيا مشهورا، وكذلك إذا كان ابن أبوين فقيرين فإنه من العبث أن يتعلم فن التجارة لما يستلزم ذلك من المال، وهكذا إذا كان فيه بعض العاهات كضعف البصر فلا يجوز أن يتعلم فن الصياغة مثلا بل من الواجب في كل حال أن تراعى حالة الولد وقابليته للعلم فيتلقن منه ما كان ملائماً لحالته الطبيعية لازما لحياته العملية.

أما في الشرق فإن المدارس كانت لعهد قريب متشابهة في أنواع علومها مقصرة في جميعها عن حاجة الأهلين، ولم يكن الوالدون يبالون في أمر مستقبل بنيهم، بل كان ولا يزال العاقل منهم من يهتم بتعليم ولده إلى أن ينال الشهادة، ومن ثم يقف متنفسا نفس الراحة كأنما واجباته الوالدية قد انتهت عند هذا الحد من الاهتمام، وقد فاته أن العلم وحده

لا يضمن نجاح مستقبل الولد بل كثيراً ما يكون سبب شقائه وفقره، وذلك لأنه يبعث به على الخيلاء والتمسك بأذيال المجد والعلاء بحيث يأنف من الأعمال الصغيرة، بينما أن ضيق ذات يده أو صروف حوادث دهره تحول بينه وبين بلوغ ما يتمنى من الأعمال العظيمة التي تناسب مقامه العالمي فإذا لم يقيض له الحظ خدمة في الحكومة أو يسخر له من يمده بالمال لإنشاء مصرف أو ما شابه من الأعمال ظل حياته بطولها بين عراك وجهاد إلى أن تنفذ عزيمة شبا به رويداً رويداً فيعود قانعا من دخله بما هو دون الكفاف.

ومن ذلك يتضح أن العلوم لا يوافق أن تكون واحدة لكل من أفراد الناس فإنه كما لا يحسن أن يكون جميع الناس نجارين أو بنائين أو حدادين كذلك لا يناسب أن يكون الجميع أصحاب بكالوريا، بل الأفضل أن يتحول كل منهم إلى وجهة عملية صناعية كانت أو زراعية، وقد تنبهت حكومتنا الساهرة إلى هذا الأمر فنشطت في السنوات الأخيرة لإصلاح حالة التعليم والعناية بتربية العوام تربية علمية عملية توافق حالتهم وساعدها في ذلك رجل الفضل والنبل دولة الأمير حسين كامل باشا؛ فأنشأ بهمته وسعيه مدرسة صناعية في دمنهور، وكذلك دولة الأمير يوسف كمال باشا المشهور بفضله وإحسانه في ميدان الوطنية الصادقة، وأنشأ من ماله مدرسة الفنون الجميلة في مصر، وأملنا أن يحذو حذوها جميع أعيان الأمة ويرفعوا شأن المدارس إلى الحد الكافل النجاح أولادها على اختلاف طبقاتهم، وبذلك تصلح أحوالنا ويشب كل

من أولادنا على علم تام من أمر مستقبله واستعداد لعمل موافق لذوقه ومقدرته بحيث لا يخطر له يوما أن يعود عنه أو يأنف من تعاطيه، بل يتحول إليه بكل قواه ويبذل جهده في إتقانه والتفوق بعمله كما هي الحال في البلدان الراقية.

وقد تقدم لنا القول أن الاهتمام بمستقبل الولد ومعرفة نوع العمل الملائم له لا يتمان إلا بعد اختبار ميله واستعداده، ولما كانت الأم أقرب الناس إلى الولد وأكثرهم ملازمة له فهي ولا شك أقدر على معرفة حاله ودرس أخلاقه، ولاسيما بما أوتيت من قوة الفراسة ورقة الشعور فضلا عن رابطة الألفة والعشرة التي تمزج روحها بروح ولدها بما يجعلها أكثر اختبار بأسرار أمياله وأشد تأثيرا على أفكاره، وعلى ذلك فيكون من أهم واجباتها أن تشارك الرجل في أمر مستقبل ولدهما وتحد معه بتربيته، وبذلك تضمن له النجاح والفلاح.

المطلب السادس عشر: في تربية الفتاة العلمية

تقدم لي القول في التربية العامية في المحاضرة الماضية أن تعليم الصبيان يجب أن يختلف باختلاف طبقات الناس ودرجة استعدادهم وماهية الوجهة التي يقصدونها في تحصيل رزقهم، وذلك اقتصادا للوقت وسعيا لإتقان العمل أو الحرفة التي يرومون تعلمها فالطبيب مثلا لا تهمه أصول فن التجارة، وإذا علمناه الحساب وعلى مسك الدفاتر فإنما نكون قد أضعنا وقته عبثاً وصرفنا قوة عقله عن إتقان علم الطب الذي يحتاج إليه، وكذلك الخياط لا يفيده أن يتعلم كيفية تركيب الأدوية وماهية

العقاقير التي تتألف منها بل ذلك من شأن الصيدلي، وهكذا سائر الأعمال فإن كلا منها قائم بنفسه لا يضطر الرجل إلى إشراك أعمال أخرى به.

أما المرأة فحالتها غير حالة الرجل، وهي واحدة فيها سواء الزوجة أو الوالدة وواجباتها لا تتغير في حالتي الفقر والغنى، بل هي دائما أبدا في حاجة إلى تربية أولادها والسهر على راحة رجلها وتمريضه والحرص على أمواله وخدمة أسرتها وخياطة ملابسها إلى غير ذلك من الأعمال النسائية العظيمة الأهمية فضلا عما تصادفه في حياتها من إخطار اليتم والترمل والشكل والضيق والفاقة وما تقع فيه من مشاكل الوراثة والوصاية والبيع والشراء الأمور التي كثيرا ما ينجم عنها ذهاب أموالها وضياع حقوقها متى كانت جاهلة.

وعلى ذلك نرى من الواجب أن تتعلم علما صحيحا يمكنها من القيام بهذه الواجبات وهو الأمر الذي لا تزال مدارسنا مقصرة فيه حتى الآن فإن جملة مدارس الفتيات عندنا لا تتجاوز في تعليمها حد المبادئ البسيطة وهذه لا تفيد وحدها في تهذيب الفتاة وتعليمها وإنما يصح أن تكون أساسا لما يأتي بعدها من العلوم فإذا لم يأت بعدها طمرت رمال الأيام على ذلك الأساس فمحت آثاره وذهبت بالفائدة التي تعود على الفتاة بل قد يكون منه بعض الضرر بأن يبعث بالفتاة على الغرور والاعتداد بالنفس واحتقار ذويها.

وأول شيء يجب الالتفات إليه في تعليم فتياتنا هو اللغة العربية

فإنها ضرورية لفهم ما يطالعنه من كتبها وأخبار أهلها وآداب كتبها على أن لا يقتصر في تعليمها على المبادئ البسيطة كما هي الحال الآن فإن ذلك يجعل حافظتهن عبارة عن وعاء مشحون بقواعد لغوية وألفاظ ومترادفات لا تجديهن فائدة تذكر في مستقبل حياتهن إلا على قدر ما تفيدهن قواعد الصرف والنحو في تربية أطفالهن، بل يجب أن يعرفن آداب اللغة ويتعلمن تاريخ التمدن وعادات الأم الراقية في المدنية ويتمرن على الإنشاء فيطرقن المواضيع ويصورن الأفكار بحيث تنمو فيهن قوة الملاحظة وينغرس فيهن الميل إلى المطالعة وإدراك أفكار العلماء وآرائهم فيستفدن منها خبرة ورشاد ويصبحن بذلك موضع احترام الرجل فلا يعود من ثم ينظر إليهن نظره إلى تمثال مزين وجد لتسليته أو طفل لا تتعدى قوة إدراكه حدود التبرج والأزياء، بل يصبح حديثهن شهيا في المجالس ومجموعة حكم وفوائد في البيوت يرضعها الأطفال مع اللبن ولا يخفى على العاقل ما في ذلك من تعظيم الأولاد لوالداتهم وانقيادهم لإرادتهن وأحكامهنّ.

ثم يجب أن يتعلمن الجغرافيا والحساب والرياضيات والطبيعيات والكيمياء والتاريخ الطبيعي بشرط أن لا ينسج في هذه العلوم على منوال يشحن به أذهان الفتيات بحدود ورموز وألغاز وأسماء عويصة لا تلبث أن تزول من حافظتهن بمزايلة المدرسة ويذهب الوقت والتعب في تحصيلها ضياعاً بل يجب أن تتخذ هذه العلوم كذريعة لتربية العقل وتنوير الذهن ومساعدة الفكر على الانطلاق بين هضبات الطبيعة واستنشاق نسيم

أسرارها ومرافقة أهل العلم على أجنحة البخار والهواء وتحت الأرض وفي عرض الأوقيانوس ونقطة القطب المعرفة اكتشافاتهم واختراعاتهم العامية والصناعية والطبية فيتلذذون باستطلاع نتيجة مساعيهم وتوقع فوائدها ويطربن من مطالعة المقالات الجميلة والقصائد الرنانة ويصرن قادرات على إدراك علل المحسوسات وكيفية نظامها وتكوينها واندثارها والعلم أسرار البخار والكهربائية وما يصنع بواسطتهما من الآلات العجيبة بحيث إذا وقفت سيدة أمام آلة التلفون أو سمت بالتلغراف اللاسلكي تكون على علم بكيفية مقدرتهما على نقل الأصوات وإشارات المخاطبة.

وينبغي أن يحطن عاما بالقانون إلى حد يجعلهن يعرفن قانون المعاملة والوصية والبيع والشراء لا أن يصرن متشرعات، وكذلك ليس من الضروري أن يتعدى في تعليم المعاني والبيان حد النصوص القليلة التي تجعل البنات يفهمن ما يقرأن ويدركن وجه الحسن منه، ولا بأس من إضافة على العروض والقوافي إلى ما ذكرنا بحيث يميزن بين الأوزان ويدركن صحيح المعاني من فاسدها.

وأفضل طرق التعليم ما التي بشكل محادثات بسيطة تشترك فيها التأمينات بالاستفهام والاستنتاج فيكون لهن من وراء ذلك فائدة ولذة تساعد على رسوخ العلم في أذهانهن وتميط النقاب عن أسرار المشاهد الطبيعية التي تقع تحت أبصارهنّ.

ويجب أيضا أن يتعلمن مبادئ علم الصحة وفن الاقتصاد المنزلي اللذين عليهما تتوقف سلامة الأسرة صحيا وماديا، وهذان العاملان لا أثر

لهما في مدارسنا مع أنهما أكثر ضرورة للبنات من سائر ما يقتبسنه من العلوم لأن عليهن تتوقف راحة الأزواج والمحافظة على ثروتهم وهن تناط بهن تربية الأولاد ولعنايتهن توكل صحة أجسادهم.. جدير بهؤلاء اللواتي سيقضين الحياة زوجات وأمهات أن يكون تعليمهن موافقا لتلك الحياة معينا لتحمل الأتعاب ومساعد لتدارك الأخطار والأمراض التي يتعرض إليها أفراد المجتمع.

ربما تدهشن لأقوالي أيتها السيدات الفاضلات أو تستكثرن أنواع العلوم التي أشير بصلاحية تعليمها للفتيات، ويخيل لكن أني أقصد بذلك أن تصير بناتنا في مصاف الفلاسفة والعلماء وأن يقضين مدة الشباب ضمن جدران المدارس كلا فهذا ليس الذي أقصده، وإنما أقول بوجوب إلمامهن بالعلوم المذكورة إلى الحد الذي تحتاج إليه المرأة في معاملة رجلها وتدبير منزلها والاعتناء بأولادها فما ارتقت امة إلا وكان أساس رقيها تعليم النساء، ولا غرو فإن عليهن تتوقف سعادة الأمة وعلى تعليمهن مدار ارتقاء الأفراد إذ تنبث روح آدابهن وتعاليمهن في الشعب فتدفعه في مدارج الارتقاء والنجاح وتسير به إلى مراقي الكمال والفلاح، وأما إذا أهمل تعليمهن فتنعكس الآية ويصبح وجودهن مدعاة للتقهقر والانحطاط ومهدا للخمول والهوان.

وحريٌّ أن تكون كتبهنَّ مزدانة برسوم مشاهير الرجال وتراجم شهيرات النساء وصور المتاحف والآثار الشهيرة التي تجعلهنَّ يقدّرنَ منزلة أهل العلم ويدركن أهمية الأشياء التي حولهن فيبثها في صدور

أولادهن وبذلك يربين فيهم الذوق الحسن والمقدرة على معرفة قيمة الأشياء الجميلة، الأمر الذي نحن في حاجة كبرى إليه، وقليلات منا اللواتي يعنين في تربية الذوق في أولادهن، ولذلك نرى الرجل يقف في أعظم المتاحف وينظر إلى أهم النقوش المتقنة ويسرح بصره في ألطف المشاهد الطبيعية دون أن يستوقف فكره أو يجتذب اهتمامه شيء منها بل هو إذ دار العاديات على مقربة منا ومع ذلك قليل الذين يعنون بزيارتها في حين أن الغربي يبتاع الصورة النادرة بألوف من الدنانير ويطوف البلدان ويقطع البحار ويجوب القفار لمشاهدة المتاحف والآثار والوقوف على سرائر العلى والتاريخ وإذا رأى في طريقه زهرة نابتة على حافة الطريق وقف وحدق فيها معجبا بدقة أوراقها ولطف تركيبها ورواء لونها وإذا مر بتمثال لأحد مشاهير أهل العلم والسياسة والفضل وقف متهيباً وقلبه يضرب احتراماً وإجلالاً.

وعلاوة على ما ذكر من أنواع العلوم التي ينبغي تعليمها للفتيات علم الموسيقى والفنون الجميلة فإنهما من أفضل الوسائل التي تمرن العين والأذن على تمييز الألحان والأشكال ومعرفة الحسن فيها من الفاسد فضلا عن أنها تساعد على تفريج الكروب وطرد الآلام والأحزان فجدير بالفتاة أن تتعلمهما فتجد فيهما خير مؤنس في وحدتها وأجمل عمل تتلهى به في ساعات الفراغ بل هي إذا أتقنت تعلمهما كانا لها سياجا يصونها من ذل الفاقة ويسهل لها سبل الكسب إذا عضها القدر بنابه، ولذلك يجدر بالمدارس أن تعنى بتعليم البنات، فضلا عن عنايتها

بتعليمهن الخياطة والتفصيل والتطريز والتصوير والرسم والحفر والتنزيل، وغير ذلك من الأعمال التي تساعد السيدة الموسرة على تمضية الوقت بالأمور النافعة وتكسب الفقيرة أرباحاً مادية، وبذلك تصبح المرأة مخلوقاً مستقلاً ذات حزم ومعرفة تحفظان منزلها في المجتمع الإنساني وتمكنانها من الثبات لدى هجمات النواب وتقلبات الحوادث..